« سكوت المرأة زينة » .. « العلم والعفة لا يجتمعان » .. اجلسى فى البيت واسكتى ! .. شعارات رفعها الرجل منذ ليل الزمان ليخضع بها المرأة لسلطته ويقطع لسانها ويفرض عليها قانون الصمت .. وأصبحت المرأة محبوسة ومظلومة ، وتافهة وجاهلة .. و .. وصامتة وثرثارة ! . فشهيدة الصمت الرجالى هى أيضا بطلة الثرثرة والنميمة والأذية الأنثوية .. فكيد النساء غلب كيد الرجال .. والعين بالعين والسن بالسن والبادىء أظلم !.

أفيون المرأة المظلومة
الكلام والكلام والكلام

ليليات

● « والصمت أبشع أنواع الاضطهاد » كما قال الفيلسوف باسكال .. لماذا ؟ .. الإجابة عند أبى تمام الذى قال : « الصمت منام العقل والنطق يقظته » .

والرجل على مر العصور والأجيال راح يضطهد المرأة بكرباج الصمت ، ويكمم أنفاسها ويشل لسانها ويفرق عقلها فى ظلمات الجهل حتى يستعبدها استعباد الرقيق . والأمثلة على ذلك كثيرة . يكفى أن أذكر ما فعله الرجل بالمرأة المصرية فى عهد المماليك .

قمقم الصمت !

فى دولة « الأغوات » تحول كل رجل إلى جنى وتابع للملوك الجان ! وسحر زوجته وحولها من « إنسانة » إلى « حريم » وحكم عليها بالحياة فى سجن مؤبد داخل قمقم من الصمت المؤبد ! .

وفقدت المرأة رشدها . وأصبح فمها صامتا وأنفها صامتا وعيناها صامتتين فهى لا تتنفس الهواء إلا من خلال النوافذ الضيقة والمشربيات .. ولا ترى الدنيا إلا من خلال وراء « أسوار » البرقع و « زنزانة » الحجاب .. أما نور العلم فهى محرومة منه .. فعقلها فى سبات عميق . وكل ما تعرفه من العالم هو الخرافات التى تسمعها من النساء العجائز .. وبلغ بها الجهل إلى حد أنها كانت إذا رأت برقا طلقته شررا يتطاير من عيون الجان ! . وإذا سمعت رعدا تصورت أنه دبدبة خيول العفاريت ! . وعند خسوف القمر كانت تلجأ إلى النحاس وتدقه بيد « الهون » تخويفا للحوت الذى ابتلع القمر ! .

لن جهل المرأة يولد احترامها للخرافات ، وعدم تمييزها بين الممكن والمستحيل . واستعدادها لتصديق أى شىء يقال لها . وخاصة لو كان الرجل هو الذى يقوله . فالرجل هو صانع الكلمة ، ورسيد الكلمة ، وكلمة الرجل حقيقة .. وعلى المرأة أن تقبلها كما هى بلا مناقشة .. تماما كما تقبل سلطة الرجل وأوامر ونواهى الرجل بطاعة عمياء ، لأنها تؤمن إيمانا أعمى بالرجل مخترع الكلمة !.

امرأة بلا فم !

المهم أن الرجل ترك المرأة تسبح فى دنيا أوهامها وخرافاتها .. ورفض أن يمنحها عقلا واعيا .. واستكثر عليها أن يكون لها فم تأكل به ! . فهى لا تأكل أبدا أمام الرجل وسعه وإنما بعده دائما . فالمرأة التى خلقها الله بعقل وفم ولسان أصبحت فى يد الرجل بلا عقل ولا فم ولا لسان ! . ومن شدة جهلها كادت تخرب اقتصاديات بيتها وبيت رجلها .. فهى لا تعرف المساومة . ولسانها يتعلثم بمجرد الحديث مع الرجل حتى لو كان تاجرا تشترى منه بماطا . واستغل التجار قلة عقلها وسكوت لسانها وخدعوها .. تماما كما يخدع اليوم تجار شارع الشوارعى المرأة المصابة « بعقدة المستورد » .. وراح التجار يبيعون لا مرأة الأمس قطعة القماش القطن على أنها حرير مستورد ، والحلة النحاس على أنها حلة ذهب ، والخاتم المرجان على أنه خاتم ياقوت ! . وحينئذ فقط لما بدأ اقتصاد الرجل يهتز وجيبه يفلس بدأ يفكر فى ضرورة إيقاظ عقل المرأة من منامه الطويل . بنور العلم . ومتى كان ذلك .. فى آخر سنوات القرن الماضى ! .

● وهذه كانت مجرد صورة أو رسم كاريكاتورى لما صنعه الرجل من هول وأهوال للمرأة . حين تفقد النطق ويقظة العقل ، فيسهل عليه استعمارها واستعبادها .. ويسهل عليه أن يسجن لسانها داخل لها ويلجمه بلجام . ويسجن عقلها فى ظلمات الجهل ويحجبه عن نور العلم ، ويسجنها عقليا فى ظلمات الجهل ويحجبه عن نور العلم ، ويسجنها هى داخل البيت ويبرقعها ويكفنها !.

ويعد كل هذا ، ورغم كل هذا ، يندهش الرجل ويبراءة الأطفال من عقل المرأة المظلم ، وضيق أفقها .. فهو ببراءة الأطفال ينتف رينها وينقص جناحيها ويغلبها على أمرها ثم يشكو من أنها تجهل الطيران !.

●● وياما فى الحبس من مظلومات .. وبعدد نساء الأرض !.

وتاريخ الرجال يقول لنا إن الشهداء لا يسكتون أبدا مهما ذاقوا من ألوان العذاب والاضطهاد . فما بالك لو كان الشهيد امرأة وشهيد ماذا ؟ شهيد الصمت ! . بالطبع يحدث العجب العجاب . وهذا ما حدث فعلا . فلما حرم الرجل المرأة من نعمة الكلام ليظل هو

لقط الكلمة وصاحب الكلمة .. أصبحت المرأة لا تنطق بكلمة لها وزن ولها معنى .. مادامت لا تعرف قيمة الكلمة وتدرك جوهرها . ونتيجة لجهلها بالكلمة وكبت الكلمة فى عقلها وحنجرتها ، أصيبت المرأة بداء هستيريا الكلام .. وأصبحت « الخرساء » الثرثارة !.

نبلغة الرجال وحسب فقه لغة الرجال : المرأة خرساء بالمجاز » وثرثارة فى الحقيقة .. أى قصيرة اللسان بالمعنى المجازى ، وطويلة اللسان وسليطة اللسان بالمعنى الحقيقى .. أى باختصار من الممكن أن نقول إن المرأة حتى وقت قريب جدا كانت صامتة العقل حقيقة ومجازا . وثرثارة اللسان حقيقة ومجازا ؟.

وهذه الحقيقة التاريخية المأساوية الأنثوية ، أجزل الرجل فى التعبير عنها بسخائه وكرمه المعتاد فى أقواله وبالذات فى أمثاله الشعبية .. ولكن بالطبع فاته أن يقول إن هذه الهستيريا الكلامية هو مصدرها وخالقها .. فمثلا نجده يقول بحكمته فالاعتراف بالحق فضيلة :

● « قالوا تعرف الهايف بإيه قال بكلامه » .. فالعقل واللسان يربطهما الكلام ، والكلام يدل على عقل صاحبه والمرأة كلامها كثير إذن فهى « هايفه » .. فكثر القول دليل على قلة العقل .. و « قصر الكلام منفعة » و « كتر الكلام خيبة » و « كتر الكلام يعلم الغلط » و « كتر الكلام يفسل القيمة » ! .. ولكن هل كانت للمرأة أصلا قيمة فى نظر الرجل عندما أعمى عقلها وبصيرة عقلها ، فخيم الظلام عليه ، حتى لم تعد تميز بين الغلط والصواب ، وتتأثر بكل ما تسمعه .. و « كلمة تجيبها وكلمة تودبها » ! .

ولما حبسها الرجل فى البيت أصبحت المكينة « قاعدة للساقطة واللقطة » .. فكل ما يشغل بالها هو الكلام فى أمور الناس بلسانها الفضفاض النطاط ، والتقاط ما يقوله الناس بأذنها الفضولية الصاغية لكل ساقطة .. وهى معذورة كل العذر .. فكيف تسل نفسها وتشغل فراغ ونتها ، وهى تعيش حياتها اليومية فى منام ؟ لا بد من اليقظة وخاصة أمام الفرن حينما تخبز خبزها اليومى وتعجن حياتها .. واليقظة لا تكون إلا بكثرة الكلام والثرثرة .. فهذا كل ما تملكه أو على الأصح هذا هو ماتركه لها الرجل . الذى راح بعد ذلك يسخر منها ويقول على لسانها : « قاعدة على البراق أى الفرن . وأضرب بلسانى » ! .. فبالعقل والنطق مافا كان فى قدرة المرأة أن تفعله غير الكلام وكثرة الكلام و « اللت والعجن » ؟ !.

الطعنات اللسانية الأنثوية !

ومع المران اليومى وكثرة الاستخدام أصبح لسان المرأة حادا مشحوذا مصقولا كله طلاقة وانطلاق .. فو يجرى على سجيته ويقفز بحرية من كلمة إلى كلمة .. فما قيمة الكلمة ؟ .. لا شىء فلا مدلول لها فى عقل المرأة الذى تسيطر عليه ظلال الجهل .. وبما أن هذا هو مأأراد الرجل ، فعليه أن يجنى ثمار أفعاله ! .. وعليه ألا يلوم المرأة على لسانها الذرب كالسيف الذرب الذى نقع فى السم ثم شحذ .. وعليه ألا يتهمها دائما بقوله إن حد لسان المرأة أشد من طعن السنان ! . ويبرر اتهامه بقوله « إن جراحات السنان لها التئام - ولا يلتئم ماجرح اللسان » .. واللسان المقصود هو لسان المرأة بالطبع .. فالرجل وحده هو المسئول عن حدة الطعنات اللسانية الأنثوية ! .

● فالرجل هو الذى دبر مؤامرة الصمت .

بريشة : ممدوح أنور

وهو الذى خلع عقل المرأة من فوق عرش جمجمة رأسها وأجلس مكانه الجهل .. وهو الذى افتقدها النطق .. ففقد ميزان الكلمة توازنه فى عقلها وفى فمها .. فسكتت عن الكلام الموزون وثرثرت بالكلام غير الموزون .

وبعد كل هذا الظلم « الصوفى » يدعى الرجل أنه مظلوم والمرأة ظالمة . والعكس هو الأصح .. فالرجل هو الظالم والمرأة هى المظلومة .. والحمد لله أن علاقة الرجل والمرأة لا يمكن مقارنتها بأية علاقة أخرى بين ظالم ومظلوم .. فهى علاقة معقدة جدا .. فهما جرى فهناك شىء اسمه الحب يقيد الظالمة بالمظلوم .. هناك هذا الطغيان العذب .. والحب مهما تعذب فهو يظل محتفظا بعذوبته .. والمعذبة مهما رأت من قسوة وأهوال تحب معذبها .. ومعذبها هو إلهها .. وهى تعبد الإله وتخاف منه .. والخوف من الإله هو الذى يختن كل بادرة ثورة عند المظلومة .. ومادامت لا تجرؤ على الثورة . فهى تستسلم .. والاستسلام يعلم الصبر .

الصبر على الحبيب !

والمرأة لأنها عاقلة فهى تصبر على أذى زوجها .. « فالحرة صبرت فى بيتها عمرت » .. والتى تطاطىء رأسها للأذية تمر عليها الأذية مر الكلام « تطاطى لها تفوت » .. وبما أن المرأة لا تحيا إلا بالرجل . ولا وجود لها إلا بالرجل وبحب الرجل . فهى تصبر على الرجل وتتحمل سيئاته خوفا من أن تفقده وتبقى بلا رجل .. « فصبرى على الحبيب ولا فقده » ! و « ضل رجل ولا ضل حيط » ونار جوزى ولا جنة أبوها فالمرأة تفضل نار الزوج على الوحدة .. وكل ما يفعله فيها الزوج المحبوب . محبوب إلى قلبها .. فهى التى تقول : « ضرب الحبيب زى أكل الزبيب » . وحتى إذا ضرب الحبيب بفضيان من الحديد .. هو يضرب والمحبة تزيد !.

الانتقام من المعبود !

فالقلب له أحكامه التى يجهلها العقل .. والضرورة لها أحكام .. والرجل لا بد منه .. وشر الرجل لا بد من تحمله .. والمرأة خلقت لكى يعذبها الرجل .. ولكى تخضع للرجل هذه هى الحياة ! . والحياة تحب طولة البال .. والمرأة صبر والصبر امرأة .. ولكن الصبر له حدود .. والمرأة فى أعماقها لا تستسلم تماما لاستسلامها وخضوعها وطاعتها العمياء للرجل .. وهى تريد أن تحتج على وضعها .. وتنتقم من الرجال عامة الذين طحنوا كيانها وقهروها .. وتنتقم من رجلها بالذات الذى تعطيه كل شىء .. وقتها .. زمانها .. حياتها ، ولا تأخذ منه إلا القليل .

وهى فى نفس الوقت لا تجرؤ على الثورة على الرجال وعلى رجلها .. فمن المستحيل أن تثور على معبودها . على إلهها .. ولكن ما باليد حيلة .. فنار الثورة تأكل قلبها .. فاذا تفعل ؟ .. لا بد من إخماد هذه النار .. لا بد من الصبر على صبرها .. لا بد أن تصبر نفسها .. كيف ؟ .. مادامت الأعمال والأفعال مستحيلة فلتستبدلها بالكلام ! . وهكذا تضرب عصفورين بحجر .. فتغيظ الرجل الذى يكره كثرة الكلام ، وتنفض عما فى قلبها وما أكثر ما فى قلبها ! . ومادام الرجل ينصح قلبها بالسكوت . ويقول له : « يا قلب يا كتكت اسمع الكلام واسكت » ! فلتسمع الكلام وتتكلم ! . فلتعبر عن غيظها وتشف غليلها بالكلام والكلام والثرثرة والنميمة ! .

وجارتى بوليس تجدق !

● ومع من ؟ .. من النساء بالطبع ! . فقبل اختراع التليفون كانت الجارة هى بوليس تجدة المرأة .. فلولا مواساتها لكانت ماتت من شدة غيظها وكمدها .. « فلولا جارتى لا نفقعت مرارتى » ! كما نقول أمثال النساء .. وبعد اختراع التليفون أصبح كل صوت نسائى صديق هو بوليس تجدة المرأة الذى ينفذها ويصبرها على صبرها .

فالمرأة عادة لا تصبر على كظم غيظها من الرجل .. لأنها حساسة جدا . ومادامت حساسة فهى سريعة الثأر وسريعة الغضب .. وهذا حقها الذى منحه لها الرجل بنفسه .. فالرجل هو الذى أرادها أن تكون خرساء .. إذن فلتأخذ طباع البكم .. ولتصبح .. « زى الخرس لما يحكوا له على طرف مناخيرهم » فيغضب من شدة الغيظ وبسرعة بنور .. والمرأة حتى لا يحتد غضبها مثل الأخرس ، وتتفجر غيظا .. فليس أمامها إلا أن تبوح بما فى نفس قلبها وتنفض عن غضبها .. ولتقل ما تشاء !

كرة وكلام وأهداف !

ولو كان حديث الرجال ـ ولا أقول نميمة الرجال ـ كله كرة وأهدافا وأفكارا .. فإن حديث النساء كله كرة وأهداف وكلام وكلام .. عن الرجال ، ومتاعب الحياة مع الرجال ، والشكوى من الرجال ، والمقارنة بين الرجال ، وإفشاء أسرار الحياة مع الرجال !.

والحياة الزوجية خير دائم ومستديم .. و « ياردن طنى كل ساعة خبر » و « يا تليفون رن كل ساعة خبر .. ولو أن جرس التليفون لم يرن لكان كارنة الكارنة الأنثوية هذه الأيام . وكيدا من رجال مصلحة التليفونات . فلتمن على باب الجارة كما كان الحال أيام زمان !.

وأحاديث النساء تشبه إلى حد ما الأحاديث التى تدور بين الخدم فى المطبخ عندما ينعمون أصحاب البيت ، وبين البوابين على « الدكة » عندما يكشفون أسرار كل سكان الحى . وبين السعاة فى أماكن العمل عندما يفضحون كل أسرار وتحركات الموظفين والموظفات فى ثرثرتهم . فأحاديث المرأة تحمل نفس سمات أحاديث الخدم والبوابين والسعاة . وفى أمريكا وأوربا تصدر صحف خاصة للبوابين والنساء مليئة بالأسرار والفضائح . أما فى الدول النامية مثلنا ، فالمرأة المكينة مازالت هى وحدها التى تتكفل بهذه المهمة الإعلامية العملاقة !!.

● فالمرأة عندما تتكلم عن الرجل ، فهى تصفه بنفس التهكم الذى يصف به الخادم مخدومه ، لأنها ترى من تحت لفوق تماما كما يرى الخادم سيده من تحت لفوق !.

وهى لا تتكلم عن رجلها بسوء نية .. أبدا .. وإنما بمنتهى حسن النية .. فكل ما تريده هو أن تتحدى الرجل بالكلام فقط لا بالعمل !.. وتقول للأذن الأنثوية الصديقة إنه طفل ساذج ، ومغرور وأنانى ، وطماعة ومستبد .. ولكن .. « ولكن » هذه مهمة جدا .. لو تجرأت صديقتها ونالت ولو كلمة واحدة عن رجلها لتواسيها وتخفف عنها همومها .. فيا ربلها !.

فكيف تتجرأ وتذم رجلها .. إلهها ؟! . من حقها هى فقط أن تذم زوجها ، وعلى الجارة والصديقة وكل النساء السكوت !.. فزوجها هو معبودها .. والمعبود له احترامه وهيبته وعظمته وجلاله .. وهى كالقطة تخربش كل من يمسه ولو بكلمة مواساة وتعزية لها !!.

●● فهذه هى دنيا أحاديث المرأة .. كلام فى كلام فى كلام !

الثرثرة : أفيون كل مظلومة

والمرأة معذورة كل العذر .. فلغة المظلومين تختلف عن لغة الظالمين .. ولغة المرأة المظلومة تختلف عن لغة الرجل الظالم .. فكثرة الكلام والثرثرة والنميمة الظريفة اللطيفة ، هى أول وأبسط أنواع يقظة العقل .. فلما حرم الرجل عقل المرأة من النور ، وقطع عن لسانها تيار الكلام وحرمها من علم الكلمة .. أصيبت المرأة بهستيريا الكلام !.

ومازالت آثار الهستيريا موجودة .. ولا عجب فى هذا .. فقد ظلت المرأة مئات الآلاف من السنين مصابة بهستيريا الكلام .. ومن المستحيل علاجها منها فى ثلاثين أو حتى سبعين سنة .. فالأمراض النفسية المزمنة يطول علاجها !.

والثرثرة الأنثوية .. أو هستيريا الكلام هى أفيون المخلوقات المظلومات .. النساء .. فهى التى تدور تسكن آلامهن وأوجاعهن .. ولو استطاع الرجل أن يقضى على كل أنواع الأفيون التى على الأرض فهو لن يستطيع أبدا أن يحرم المرأة من « أفيونها » .. « كلامها » و « ثرثرتها » و « نميمتها » الظريفة اللطيفة . فهذه هى الذكرى الوحيدة الطيبة من عصور وقرون ظلمها وكبت لسانها !!.